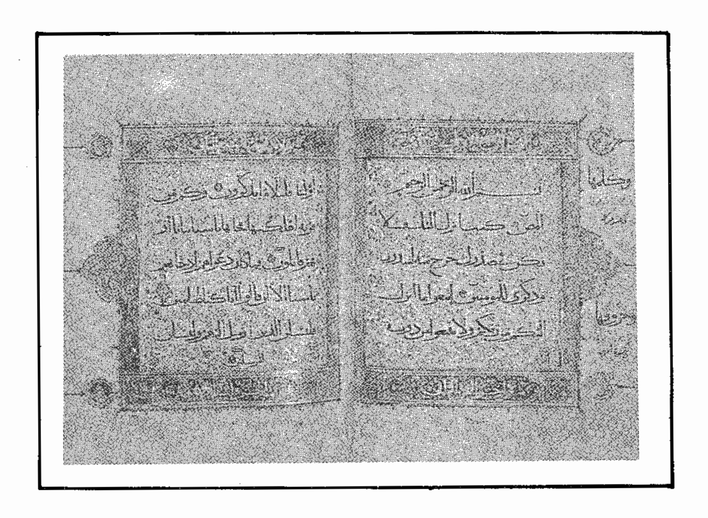


إبن القيم

وحسه البلاغى فى تفسير القرآن الكريم

دكتور عبد الفتاح لاشين

التعريف بابن القيم :

هو محمد بن أبى بكر بن أيوب الدمشقى، ويكنى بأبى عبد الله، ويلقب بشمس الدين، ويشتهر بابن القيم، أو بابن قيم الجوزية، والجوزية : اسم مدرسة بدمشق كان أبوه قيما عليها.(١)

ولد فى عام ٦٩١هـ الموافق عام ١٢٩٢م، وتوفى بدمشق سنة ٧٥١هـ، فزهرة شبابه كانت فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى.

وقضى معظم حياته بالشام، وجاور بمكة فترة من الزمن، وارتحل الى القاهرة فى بعض الأحيان.(٢) وكانت الشام فى حياة ابن القيم فى عصر سلاطين المماليك (٦٥٦ - ٩٢٣هـ) تابعة لمصر، ويحكمها نائب من قبل السلطان بالقاهرة، وامتد ذلك ثلاثة قرون.

وقد تتلمذ ابن القيم على كثير من علماء الشام، ومن الشيوخ الذين اتخذهم مثلا أعلى له، وترك أثرا فى نفسه ابن تيمية، فقد لزمه منذ سنة ٧١٢هـ الى سنة ٧٢٨هـ، وأخذ عنه الكثير من آرائه، ونهج نهجه فى محاربة المنحرفين عن عقيدة السلف.

وقد ازدهرت الحياة العلمية فى عصر المماليك، إذ عرفوا أن العلم عماد الدولة، لذلك شجعوا التعليم، وقربوا العلماء، وأجزلوا لهم العطايا والمنح، وأكثروا من المساجد والزوايا التى اتخذها العلماء مقرا لطلاب العلم، وقصاد المعرفة، وأشهر هذه الأماكن، الجامع الأزهر، وجامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون، وجامع الحاكم،(٣) كما اتخذوا المدارس لهذا الغرض، وفعلوا مثل ذلك فى الشام.

الإنسان ابن بيئتـــه :

والإنسان ابن بيئته، ونتاج مجتمعه، وهو مجموعة من المواهب الطبيعية، والصفات المكتسبة من البيئة العامة والخاصة، فهى تصبغ الفرد بصبغة خاصة، وتلون أهدافه واتجاهاته بلون يناسب الظروف التى يحيا فيها، وتحيط به.

فليس غريبا أن نرى رجلا مثل ابن القيم ينشأ فى هذا الحقل، ويتغذى بهذه الثقافة، فيهضمها، ويتمثلها، يخرجها للناس فى آثار خالدة تنبىء عن عقل رشيد، وفهم سديد، فقد تبحر فى دراسة العلوم الشرعية، والعربية، وعلم الكلام، والتصوف.(٤)

وكان ابن القيم باحثا قوى الشخصية، لايتأثر بغيره، بل كان حرا، يعمل فكره، ولايلتزم برأى غيره، ولو كان شيخه ابن تيمية، فكثيرا ماكان يناقشه، ويرد رأيه عندما كان يبدو له وجه للترجيح.(٥)

وقد تعرض لمثل ماتعرض له شيخه ابن تيمية من العذاب والتنكيل، وفى مسائل قد تكون متشابهة، إذ مصدرها حرية الرأى، والبحث الحر، إلا أن ابن تيمية تعرض لأكثر مما تعرض له ابن القيم من البطش والتنكيل، لأن ابن تيمية كان حاد الطبع، عنيف الثورة على أصحاب البدع والمخالفين للسنة، وكان لايقبل أن يرجع عما يرى أنه الحق.

وحينما جاء ابن القيم كان النزاع قد خف، وفترت حدته، فأخذ يتناول المخالفين بالحجة

والبرهان فى هدوء واتزان، ويناقش الآراء، ويأخذ منها مايراه موافقا للشرع، ويرد منها ماكان يخالفه، مع ميل إلى الهدوء، وبعد عن العنت.

وعلى الرغم من ذلك فقد ناله الأذى، فاعتقل مع شيخه بقلعة دمشق بعد أن أهين، وطيف به على جمل مضروب بالدرة.(٦)

فهذه المواقف تدل على ماتميز به ابن القيم من ثبات على الرأى، كما ينبىء عن شخصية قوية لاتميل عن اعتقادها مهما أصابها من بطش وتعذيب.

ومات رحمه الله سنة ٧٥١هـ، وقد ذكر أن جنازته كانت «حافلة جدا»، وهذا الاحتفال بالجنازة يدل على سلامة اعتقاد العامة، وقد أثر عن ابن حنبل أنه قال لخصومه: «بيننا وبينكم اتباع الجنائز»(٧) فكانت هذه الجنازة غير العادية دليلا على إخلاصهم لأمتهم، ونصحهم لها.

ابن القيـم وتفسيـر القرآن

لم يؤلف ابن القيم مؤلفا خاصا بتفسير القرآن الكريم، ومع ذلك فقد كانت له اليد الطولى فى البحث فيه، فقد تناول كثيرا من آياته فى ثنايا كتبه العديدة التى بلغت أكثر من تسعين كتابا،(٨) وقد تمنى فى حياته أن يفسر القرآن الكريم ويخصه بمؤلف فقال فى أحد مؤلفاته:(٩) «وعسى الله ألمان بفضله الواسع العطاء الذى عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت فى مواضع متفرقة من القرآن على مايسنح من هذا النمط وقت مقامى بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته»، ولكن لم يحصل ماتمناه، ولم يقع مارجاه.

وظلت مؤلفات ابن القيم المطبوعة والمخطوطة على ماتركها، وكانت كتبه على تفرقها وتشتتها هى المرجع الوحيد لما تعرض له من تفسير للقرآن الكريم، حتى وفق الله الشيخ أويس الندوى، فجمع ماوقف عليه من تفسير للقرآن من مؤلفاته فى مجلد واحد، وظهر هذا الكتاب باسم «التفسير القيـم»(١٠)

ومع الجهود التى بذلها جامع هذا التفسير فقد ندَّت عنه بعض الشوارد، وظلت مطوية فى بطون الكتب، وقد نبه إلى ذلك الأستاذ محمد بهجت البيطار الدمشقى فى مقال

نشرته له مجلة المجمع العربى بدمشق، فأثنى على هذا الجمع، وقال: (١١) «إنه عمل مشكور، لكنه لم يستوف، ولم يقارب، فقد فاتته مواضع، وتمنى لو حصل التتبع الدقيق والتقصى الأنيق لمباحث ابن القيم فى ذلك».

ومن خلال تتبعى لآثار ابن القيم المتفرقة، وماجمع من تفسيره فى هذا السفر القيم تبين أن ابن القيم كان يتمتع بحس بلاغى فى فهم آيات الكتاب المبين، وقدرة عظيمة على استخراج اللطائف البيانية، والأسرار البلاغية، وتوجيه الآيات توجيها يظهر فيه البراعة، وحسن الابتكار، مما يحمل القارىء أو السامع على تقديره والاعتزاز به، فقد بلغ الغاية فى دقة الفهم، والفقه فى النص، واستنتاج كثير من اللطائف البلاغية والأسرار البيانية التى لم نسمعها من غيره، فكان هو المجلى ومن بعده هو المصلى.

وابن القيم حين تعرض لتفسير بعض الآيات الكريمة فى مؤلفاته، لم يقصد تفسير القرآن آية آية – كما هو معروف – عند غيره، وإنما كان يتعرض للآية الكريمة لبيان حكم شرعى، أوْردٍّ على فرقة من الفرق التى انحرفت عن منهج القرآن الكريم، فيظهر عند ذلك حسه البلاغى، وتبرز قدرته على استخراج النكت والأسرار.

وقد تناول فى تفسيره هذا مايخص «حروف القرآن» – حروف المعجم، وحروف المعانى – وكيفية تركيبها، وحسن اختيارها، وملاءمتها لمواضعها.

كما تناول «الكلمة» وانتقاءها، وحسن اختيارها، وتفضيلها عن سواها، وتناسقها مع غيرها.

كذلك تناول «نظم الجملة» وبناءها، وجمال التئامها، وتناسبها مع سياقها من الجمل.

وسنخص هذا البحث – ان شاء الله تعالى – بحروف القرآن الكريم، لنرى جهوده فى الدرس البلاغى، ومدى ماوصلت إليه قدرته على استخراج مافى حروف القرآن من أسرار بلاغية، ولطائف بيانية، تسترعى الانتباه، وتثير الإعجاب.

حسه البلاغى فى تفسير القرآن

الحروف فى القرآن «حروف المعجم، حروف المعانى»

القرآن الكريم يتخير حروف الكلمة، وينتقى أصواتها، صافية الذوق فى مخارجها، لذيذة السماع، طيبة المجرى على اللسان، معتدلة فى تأليفها، خفيفة فى الفم، نازلة على أحسن

هيئة فى الإيقاع، قوية الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمنه من المعانى المرادة، والأهداف المقصودة من الآية الكريمة.

لذلك نرى فى تراكيب حروف القرآن تناسقا عجيبا بين الرخو منها والشديد، والمجهور والمهموس، والممدود والمقطوع، ونجد أن اجتماعها مع بعضها يؤلف نغما مطربا، يظهر أثره فى صوت القارىء.

وهذا مايدركه كل باحث فى القرآن الكريم، وكان لابن القيم فى فهمه لحروف القرآن والبحث عن خصائصها نظرات صائبة، وأفكار طيبة، بدت فى تحليله لبعض آيات القرآن وظهرت متفرقة فى كتبه، نذكرها فيما يلى:

الحـروف المقطعـة :

وردت هذه الحروف فى أوائل سور كثيرة من القرآن الكريم، فاستفتح بها تسع وعشرين منها، نحو : ألم، ألمص، ألر، ص ...الخ، وقد اختلف العلماء فى أسرار هذه الحروف، والسبب فى بدء السورة بها اختلافا كبيرا(١٣) يعكس العجز من البشر، وهو سر من أسرار الإعجاز فى القرآن الكريم، لكن العلماء – على الرغم من اعترافهم بعجزهم عن الوصول إلى السر الحقيقى – لايكفون عن البحث عن هذا السر الدفين، والكشف عن ذلك المخبأ الثمين.

وممن شارك العلماء فى جهودهم للبحث عن سر هذه الحروف المقطعة، وتعقب أقوال سابقيه، ابن القيم، فقد قال :(١٤) «الصحيح أن [ن، ق، ص] من حروف الهجاء التى يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور، وهى أحادية، وثنائية، وثلاثية، ورباعية، وخماسية، ولم تتجاوز الخمسة، ولم يذكر قط فى أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن، إما مقسما به، وإما مخبرا عنه، ماخلا سورتين [كهيعص، ن]، كقوله تعالى «ألم، ذلك الكتاب» «البقرة ١»، «ألم، الله لا إله إلا هو الحى القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق» «آل عمران ١»، «ألمص، كتاب أنزل إليك..» «الأعراف ١»، «ألم، تلك آيات الكتاب..» «الرعد ١»، وهكذا.

ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف، وعظم قدرها، وجلالتها، إذ هى مبانى كلامه، وكتبه، التى تكلم سبحانه بها، وأنزلها على رسله، وهدى بها عباده، وعرفهم بوساطتها

نفسه، وأسماءه، وصفاته، وأفعاله، وأمره، ونهيه، ووعده، ووعيده... وأقدرهم على التكلم بها، بحيث يبلغون بها أقصى مافى أنفسهم بأسهل طريق، وأقل كلفة ومشقة.

فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه، فهى أولى أن يقسم بها من الليل والنهار، والشمس والقمر، والسماء والنجوم، وغيرها من المخلوقات.

وقد جمع الله - سبحانه - بين الأمرين - أعنى القرآن ونطق اللسان - وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، فقال تعالى : «الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان» «الرحمن ١-٤»، فبهذه الحروف علم القرآن، وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت...

ثم ينتقل ابن القيم من الكشف عن الأسرار فى تلك الحروف إلى تعريف العباد بعظمة الله تعالى وإظهار آياته وقدراته فى كيفية إنطاق الإنسان بوساطة هواء يخرج من قصبة الرئة، وإلى الفم من باطن الإنسان إلى ظاهره، فى مجارٍ قد اعدت وهيئت لتقطيعه وتفصيله، ويسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف، فتبارك الله أحسن الخالقين، يقول فى ذلك :(١٥) «فآياته - سبحانه - فى تعلم البيان كآياته فى خلق الإنسان، فسبحان من هذا صنعه! فى هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم إلى الحلقوم، وينفرش فى أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان، وأطرافه، وبين الثنايا، وفى الشفتين، والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف فألهم الله -سبحانه- الإنسان بضم بعضها إلى بعض، فإذا هى كلمات قائمة بنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هى كلام دال على أنواع المعانى : أمرا، ونهيا، وخبرا، واستخبارا، ونفيا، وإثباتا، وإقرارا، وإنكارا، وتصديقا، وتكذيبا، وسؤالا، وجوابا... إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق، كل ذلك صنعه تبارك وتعالى فى هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره فى مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين.

وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتح بها السور، كما افتتحت بها الأقسام.

الحروف تحذو حذو المعانى :

ثم يتناول ابن القيم بعض هذه الحروف المفردة التى بدئت بها بعض السور، وينعم النظر فيها، وفى بقية السورة منها، ويخرج بعد الدراسة والبحث بفكرة جيدة تدور حول التناسب بين بدء السورة بالحرف والألفاظ التى تشتمل عليها السورة، وماتدل عليه الألفاظ تلك من شدة وجهر، وقلقلة وانفتاح، مما يبرز معنى قد يخفى على بعض العلماء، وهو أن حروف الألفاظ تحذو حذو المعانى، يقول فى توضيح ذلك:(١٦) «تأمل السورة التى اشتملت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك [ق]، والسورة مبنية على الكلمات القافية من: ذكر القرآن،(١٧) وذكر الخلق،(١٨) وتكرير القول ومراجعته مرارا،(١٩) والقرب من ابن آدم،(٢٠) وتلقى الملكين قول العبد،(٢١) وذكر الرقيب،(٢٢) وذكر السائق،(٢٣) والقرين،(٢٤) والإلقاء فى جهنم،(٢٥) والتقديم بالوعيد،(٢٦) وذكر المتقين، وذكر القلب،(٢٧) والقرون، والتنقيب فى البلاد،(٢٨) وتشقق الأرض،(٢٩) وإلقاء الرواس فيها،(٣٠) وسوق النحل، والرزق،(٣١) وذكر القوم،(٣٢) وحقوق الوعيد.(٣٣)

ولم يكتف ابن القيم بما بين هذا الحرف المفرد الذى بدئت به الآية، وبين بقية السورة من مناسبة لفظية ظاهرة، بل أضاف إلى ذلك المناسبة المعنوية بين هذا الحرف المفرد [ق] الذى يدل بوضعه على الشدة والجهر، وبين معانى هذه السورة التى ملئت بالحروف القافية، وحرف القاف من الحروف الشديدة الجهرية، فناسب ذلك مع الغرض من السورة، حيث إن نزولها كان فى مهاجمة المشركين، وتقرير الوعيد لهم، وإثبات الحساب والموت والبعث ومايحف ذلك من مكروه يفرون منه ويهربون، فقال:(٣٤) «وشيء آخر، وهو أن كل معانى هذه السورة مناسبة لما فى حروف القاف من الشدة والجهر والعلو والارتفاع».

ويضيف إلى سورة [ق] سورة أخرى، وهى [ص]، وبين المناسبة بين بدء السورة بالحرف المفرد [ص]، وبين ما اشتملت عليه السورة من معانى العداوة والخصومة، فقال: «فتأمل ما اشتملت عليه سورة [ص] من الخصومات المتعددة:

فأولها: خصومة الكفار مع النبى ﷺ وقولهم: «أجعل الآلهة إلهاً واحداً» إلى آخر كلامهم.

ثم اختصام الخصمين عند داوود(٣٧).

ثم تخاصم أهل النار.(٣٨)

ثم مخاصمة إبليس، واعتراضه على ربه فى أمره بالسجود لآدم.(٣٩)

ثم خصامه ثانيا فى شأن بنيه، وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.(٤٠)

ثم يختم حديثه بقوله :
«فليتأمل اللبيب الفطن، هل يليق بهذه السورة غير [ص]، وبسورة [ق] غير حرفها، وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذا الحرف».

فنرى تحليق ابن القيم فى هذه الآفاق العالية، واختياره تلك اللطائف السامية، وحسه البلاغى الرقيق فى توجيه هذا الحرف، فذلك لايخطر إلا على قلب عقول، ولسان رطب بذكر ربه، دائم التفكير فى ملكوته.

وهذه الحروف المقطعة لاينتهى القول فيها عند حد، ولايتوقف عند رأى، فلكل عالم رأى، ولكل وجهه. وسيظل الكلام فيها يتجدد جيلا فجيلا، حتى يظل القرآن متجددا، وإعجازه مستمرا، وفى هذا الاختلاف ، وتجديد الرأى من حين لآخر علامة على أعجاز القرآن الكريم، وآية على أن العقل الإنسانى مايزال فى حيرة من أمره، وقاصرا عن إدراك حقائق الإعجاز فيه.

ونرى ابن القيم فى عقده الصلة بين بدء السورة بالحرف المنفرد [ق] – مثلا – وهو حرف شديد مجهور، وبين ماجاء فى بقية السورة من معانى الوعيد الشديد، والعذاب الأليم، والحساب الدقيق، فى يوم لاينفع فيه مال ولا بنون، قد انتفع كثيرا بما كان يراه ابن جنى، فقد كان يرى أن نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما تؤدية من معنى ارتباطا وثيقا «فإنهم كثيرا مايجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها»(٤١)

فحرف الخاء – مثلا – فى قوله تعالى فى وصف الجنة: »فيهما عينان نضاختان« «الرحمن ٦٦»، يصور بغلظه، وصوت جرسه، قوة الماء وكثرته، إذ النضخ [بالخاء] أقوى

من النضح [بالحاء]، فقد جعلوا الحاء [لرقتها] للماء الضعيف، والخاء [لغلظها] لما هو أقوى حذو المسموع من الأصوات على محسوس الأحداث.

فابن القيم قد أجاد الأخذ، وأحسن فى الاستدلال.

زيادة حرف [الميم] فى [اللهم] :

يقول تعالى: «قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير» «آل عمران ٢٦».

يقول ابن القيم:(٤٢) [اللهم] لاخلاف أن لفظ [اللهم] معناها: [يا ألله]، ولهذا لاتستعمل إلا فى الطلب، فلا يقال: اللهم غفور رحيم، بل يقال: اللهم اغفر لى وارحمنى.

واختلف النحاة فى الميم المشددة من آخر الاسم :

فقال سيبويه: زيدت عوضا من حرف النداء، ولذلك لايجوز الجمع بينهما فى اختيار الكلام، فلا يقال: ياأللهم، إلا فيما ندر، كقول الشاعر:

إنى إذا ماحدث ألمًّا   أقول: ياأللهم، ياأللهم

ويسمى ماكان من هذا القرب عوضا، إذ هو فى غير محل المحذوف، فإن كان فى محله سمى بدلا، كالألف فى [قام، باع] فإنها بدل من الواو والياء.

ولايجوز عنده أن يوصف هذا الاسم أيضا، فلا يقال: يا اللهم الرحيم ارحمنى، ولايبدل منه.

ولكن ماالسر فى زيادة حرف الميم فى [اللهم]، ولماذا كانت الميم هى المزيدة، دون غيرها من الحروف الهجائية؟.

لم يقنع ابن القيم بما قاله النحويون، ولم يتوقف عند كلام سيبويه عن حرف الميم، بل بحث عن سره، وسبب وجوده، فقال:(٤٣) «قيل: زيدت الميم للتعظيم والتفخيم، كزيادتها فى [زرقـم] لشدة الزرقـة، و«ابنـم» فى «ابـن».

استطراد قبل الإجابة عن السؤال :

ويصحح ابن القيم هذا القول، ويضيف إليه تتمة، فينقل عن أساطين العربية المناسبة بين اللفظ والمعنى، بل الصلة التى تربط بين الحركة ومعنى اللفظ، ويخص منهم ابن جنى، وينقل عنه قوله:

«ولقد مكثت برهة يرد على اللفظ لا أعلم موضوعه فأجد معناه من قوة لفظه، ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى، ثم أكشفه فأجده كما فهمته أو قريبا منه».

ثم يحكى ذلك لشيخه ابن تيمية، فيجد أن ذلك من طبع ابن تيمية أيضا.

ثم يذكر فصلا عظيم النفع لابن تيمية، فى التناسب بين اللفظ والمعنى، ومناسبة الحركات لمعنى اللفظ، ويقدم الكلام على مناسبة الحركات لمعنى اللفظ، ويمثل لها بعدة أمثلة فيقول :

«إنهم فى الغالب يجعلون الضمة التى هى أقوى الحركات للمعنى الأقوى.
والفتحة الخفيفة للمعنى الخفيف.
والمتوسطة [يعنى الحركة التى بين القوى والخفيف-وهى الكسرة] للمتوسط.
فيقولون : عز يعز - بفتح العين - إذا صلب.
ويقولون : عز يعز - بكسر العين - إذا امتنع، والممتنع فوق الصلب، فقد يكون الشيء صلبا ولايمتنع على كاسره.

ثم يقولون : عزه يعز - بضم العين من باب رد-(٤٥) إذا غلبه، قال تعالى فى قصة داوود -عليه السلام- «وعزنى فى الخطاب» «ص ٢٣»، والغلبة أقوى من الامتناع، إذ قد يكون الشيء ممتنعا فى نفسه، متحصنا عن عدوه، ولايغلب غيره، فالغالب أقوى من الممتنع.

فأعطوا الغالب أقوى الحركات - وهو الضمة - والصلب أضعف من الممتنع، فأعطوه أضعف الحركات - وهو الفتحه - والممتنع المتوسط بين المرتبتين حركة الوسط

و [ذبح] - بفتح أوله - للفعل نفسه، ولاريب أن الجسم أقوى من العرض فأعطوا

الحركة القوية للقوى، والضعيفه للضعيف.
وهو مثل قولهم: [نهْب، ويهبْ] - بالكسر للمنهوب، وبالفتح للفعل.

وكقولهم [ملْء، وملْء] - بالكسر - لما يملاء الشيء، وبالفتح للمصدر الذى هو الفعل. وكقولهم [حملْ، حملْ] فبالكسر - لما كان قويا مثقلا لحامله على ظهره أو رأسه، أو غيرهما من أعضائه، والحمل - بالفتح - لما كان خفيفا غير مثقل، كحمل الحيوان، وحمل الشجرة به أشبه، ففتحوه.

وتأمل هذا فى [الحب والحبّ] فجعلوا المكسور الأول للمحبوب نفسه، ومضمومه للمصدر، إيذانا بخفة المحبوب على قلوبهم، ولطف موقعه من أنفسهم، وحلاوته عندهم، وثقل حمل الحب ولزومه.. ولهذا كثر وصفهم تحمله بالشدة والصعوبة، وإخبارهم بأن أعظم المخلوقات وأشدها من الصخر والحديد -ونحوهما- لو حمله لذاب من حمله، ولم يستقل به، كما هو كثير فى أشعار المتقدمين والمتأخرين، وكلامهم.

فكان الأحسن أن يعطوا المصدر هنا الحركة القوية، والمحبوب الحركة التى هى أخف منها.

ثم يثنى بالتناسب بين اللفظ والمعنى، ويمثل له بعدة كلمات، فيقول:(٤٦)

«وتأمل قولهم [دار دوراناً] و [فارت القدر فوراناً]، و [غلت غلياناً]، كيف تابعوا بين الحركات فى هذه المصادر لتتابع حركات المسمى، فطابق الفظ المعنى.

وتأمل قولهم : [حجر، وهواء]، كيف وضعوا للمعنى الثقيل الشديد هذه الحروف الشديدة، ووضعوا للمعنى الخفيف - الهواء - أخف الحروف.

وانظر الى تسميتهم الطويل ب[العشنَّق]، وتأمل اقتضاء هذه الحروف، ومناسبتها لمعنى الطول، وتسميتهم القصير ب [البحتْر]، وموالاتهم بين ثلاث فتحات فى اسم الطويل -وهو العشنَّق- وإتيانهم بضمتين بينهما سكون، كيف يقتضى اللفظ الأول: انفتاح الفم، وانفراج آلات النطق، وامتدادها، وعدم ركوب بعضها بعضا، وفى اسم [البحتْر] الأمر بالضد.

وتأمل قولهم: طال الشيء فهو طويل، وكبر فهو كبير، فإن زاد طوله وكبره، قالوا: طوالًا وكبارا، فأتوا بالألف التي هي أكثر مدا وأطول من الياء، فاذا زاد كبر الشيء، وثقل موقعه من النفوس، ثقلوا اسمه، فقالوا: كُبَّار بتشديد الباء.

الإجابـة عن السـؤال :

ثم ينتقل من هذا الاستطراد الذى أثبت فيه أن الحروف والألفاظ تحذو حذو المعانى، ليصل إلى الإجابة عن السؤال – لماذا زيدت الميم فى [اللهم]، ولماذا كان الحرف المزيد حرف الميم دون غيره، فيقول:(٤٧)

«الميم حرف شفهى يجمع الناطق به شفتيه، فوضعته العرب علما على الجمع، فقالوا للواحد: أنت، فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: أنتم، وقالوا للواحد الغائب: هو، فإذا جاوزوه إلى الجمع قالوا: هم.

وكذلك فى المتصل، يقولون: ضربت، وضربتم، وإياك وإياكم، وإياه وإياهم، ونظائره نحو: به، وبهم.

ويقولون للشيء الأزرق : أزرق، فإذا إشتدت زرقته واجتمعت واستحكمت، قالوا: زرقم، ويقولون لكبير الإسْت: ستْهم – بوزن قنفذ–.

ثم يزيد فى بيان هذا المعنى، فيقول :

«وتأمل الألفاظ التى فيها الميم، كيف تجد الجمع معقودا بها، مثل: لم الشيء يلمه – إذا جمعه– ومنه: لم الله شقته، أى جمع ماتفرق من أموره، ومنه قولهم: دار لمومة، أى تلم الناس وتجمعهم، ومنه الأكل اللم، جاء فى تفسيرها: يأكل نصيبه ونصيب صاحبه، وأصله من اللم، وهو الجمع.

ومنه : ألم بالشيء، إذا قارب الاجتماع به والوصول اليه، ومنه: اللمم، وهو مقاربة الاجتماع بالكبائر، ومنه: الملمة، وهى النازلة التى تصيب العبد، ومنه: اللمة، وهى الشعر الذى قد اجتمع وتقلص حتى جاوز شحمه الأذن.

ومنه : بدر التم، إذا كمل واجتمع نوره، ومنه: التوأم، للولدين المجتمعين فى بطن، ومنه: الإمام، الذى يجتمع المقتدون به على اتباعه.

ومنه: رم الشيء يرمه، إذا أصلحه، وجمع متفرقه، قيل: ومنه سمى الزمان، لاجتماع حبه وتضامه...

وإذا علم هذا من شأن الميم، فهم قد ألحقوها فى آخر هذا الاسم [اللهم] الذى يسأل العبد به ربه سبحانه فى كل حاجة، وكل حال، إيذانا بجمع أسمائه تعالى وصفاته، فإذا قال السائل: اللهم إنى أسألك، كأنه قال: ادعو الله الذى له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، فأتى بالميم المؤذنة بالجمع فى آخر هذا الاسم، إيذانا بسؤاله تعالى بأسمائه كلها، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح:

«ما أصاب عيدا قط هم ولا حزن، فقال :مااللهم إنى عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماض فى حكم، عدْل فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى وغمى، إلا أذهب الله همه وغمه، وأبدله مكانه فرحاً.

قالوا: يارسول الله، أفلا نتعلمهن؟ قال: بلى، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن».

الحـــرف المكـــرر :

تعرض ابن القيم فى أسرار التعبير بالحرف المكرر عند تفسير قوله تعالى : «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، اله الناس، من شر الوسواس الخناس»، فقال :(٤٨) «الوسواس: فعلال من وسوس، وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفى الذى لايحس، فيحترز منه.

فالوسواس: إلقاء الخفى فى النفس، إما بصوت لايسمعه إلا من ألقى اليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هذا : وسوسة الحلى، وهو حركته الخفية فى الأذن.

ولما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس، ويؤكده عند من يلقيه إليه، كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة، فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء.

لأن الزلزلة حركة متكررة، وكذلك الدكدكة، والقلقلة، وكذلك كبكب الشيء: إذا كبه فى مكان بعيد، فهو يكب فيه كبا بعد كب، كقوله تعالى: «فليكبوا فيها هم والغاؤون» «الشعراء ٩٤».

ومثله: رضرضه، إذا كرر رضه مرة بعد مرة، ومثله: ذرذره، إذا ذره شيئا بعد شيء، ومثله: صرصر الباب، إذا تكرر صريره، ومثله: مطمط الكلام، إذا مططه شيئا بعد شيء، ومثله: كفكف الشيء، إذا كرر كفه.

وكذلك قولهم: عج العجل، إذا صوت، فإن تابع صوته، قالوا: عجعج، وكذلك، ثج الماء، إذا صب، فإن تكرر ذلك، قيل: ثجثج.

والمقصود: أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها، قيل وسوس.

ثم رجح أن يكون مثل هذا الفعل [وسوس] من الرباعى لا من الثلاثى المضعف، فقال: «وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعى بمعنى الثلاثى المضعف لم يصب، لأن الثلاثى لايدل على تكرار، بخلاف الرباعى المكرر».

وكلام ابن القيم هذا، هو كلام ابن جنى، تمشيا مع مابات واضحا من أن نسبة كبيرة من الحروف يرتبط صوتها بما تؤديه من معنى فقد جعل العرب تكرير عين الفعل دليلا على تكرير الفعل.

حـــروف المعانـــى :

[إن ، وإذا] الشرطيتين :

تتفق [أنْ] الشرطية مع [إذا] فى أن كلا منهما يطلب شرطا وجزاء، لكن [إنْ] تفترق

عن [إذا] فى أن مخرجها الظن والتوقع فيما يخبر به المخبر، ولاتدخل فى التركيب إلا على أمر مشكوك فيه، تقول: «إن جئتنى أكرمك» فالمجىء ليس مقطوعا به، ولذلك صح دخول [إنْ] الشرطية عليه.

يقول ابن القيم:(٤٩) «المشهور عند النحاة والأصوليين والفقهاء، أن أداة [إن] لايعلق عليها ألا محتمل الوجود والعدم، كقولك: «إن تأتنى أكرمك»، ولايعلق عليها محقق الوجود، فلا تقول: «إن طلعت الشمس أتيتك».

ثم قال بخصوص استعمال [إذا]: «وإذا يعلق عليها النوعان» فإذا كان المراد من النوعين –المحتمل الوقوع، والمحقق الوقوع– فهذا مالم يقل به أحد من العلماء.

يقول سيبويه(٥٠) «لو قلت: آتيك إذا احمر البسر، كان حسنا، ولو قلت: آتيك إن احمر البسر، كان قبيحا».

ويقول صاحب المقتصب(٥١) فى هذا المثال: «كان محالاً» لأنه واقع لامحالة.

وعلى هدا فقد فات ابن القيم التحقيق فى استعمال [إذا].
ثم يمثل ابن القيم لاستعمال [إذا، وإن] فيقول:

«وإذا عرفت هذا فتدبر قوله تعالى:« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم، فإن الإنسان كفور» «الشورى ٤٨».

كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى ب [إذا]، وأتى فى إصابة السيئة ب[إن]، فإن مايعفو الله عنه أكثر.

وأتى فى الرحمة بالفعل الماضى الدال على تحقيق الوقوع، وفى حصول السيئة بالمستقبل الدال على أنه غير محقق ولابد.

وكيف أتى فى وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم، وأنها مذوقة لهم، والذوق أخص أنواع الملابسة وأشدها.

وكيف أتى فى الرحمة بحرف ابتداء الغاية مضافة إليه، فقال : (منا رحمة)، وأتى فى السيئة بباء السببية مضافة إلى كسب أيديهم.

وكيف أكد الجملة الأولى التى تضمنت إذاقة الرحمة بحرف [إن]، دون الجملة الثانية، وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن تحيط بها عقول البشر.

ثم يستمر ابن القيم فى الاستشهاد بآيات القرآن، فيقول :
«وتأمل قوله تعالى «وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه» «الاسراء ٦٧» كيف أتى ب[إذا] ههنا لما كان مس الضر لهم فى البحر محققا، بخلاف قوله «لايسأم الإنسان من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيئوس قنوط»(٥٢) «فصلت ٤٩» فإنه لم يقيد مس الشر هنا بل أطلقه، ولما قيده بالبحر الذى هو متحقق فيه ذلك، أتى بأداة [إذا].

وتأمل قوله تعالى : «وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يئوسا» «الاسراء٨٣»، كيف أتى هنا ب [إذا] المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقق مس الشر له، فكان الإتيان ب [إذا] ههنا أول على المعنى المقصود من [إن].

بخلاف قوله : «وإن مسه الشر فيئوس قنوط» فإنه بقلة صبره، وضعف احتماله متى توقع الشر أعرض وأطال فى الدعاء، فإذا تحقق وقوعه كان يئوسا.

ولما كانت هذه القاعدة يشذ عنها بعض آيات القرآن الكريم، فقد جمع تلك الآيات الكريمة وعلل لخروجها عن القاعدة بتعليل مقبول، وتوجيه طريف، يدل على حسه اللغوى، وذوقه البلاغى فيقول :

«فإن قلت فما تصنع بقوله تعالى :«إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ماترك» «النساء ١٧٦»، والهلاك محقق؟.

قلت : التعليق ليس على مطلق الهلاك، بل على هلاك مخصوص، وهو هلاك لاعن ولد.

فإن قلت: فما تصنع بقوله «يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم، واشكروا لله

إن كنتم إياه تعبدون» «البقرة ١٧٢»، وقوله: «فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين» «الأنعام ١١٨».

وفى الحديث : «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»، واللحاق محقق.

وقول الموصى : إن مت فثلث مالى صدقة.

قلت : أما قوله «إن كنتم إياه تعبدون» الذى حسن مجىء إن ههنا الاحتجاج والالزام، فإن المعنى: إن عبادتكم لله تستلزم شكركم له، بل هى الشكر نفسه؛ فإن كنتم ملتزمين لعبادته داخلين فى جملتها فكلوا من رزقه، واشكروه على نعمه، وهذا كثير مما يورد فى الحجاج.

وكذلك «إن كنتم بآياته مؤمنين».

وأما قوله: «وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» فالتعليق هنا ليس لمطلق الموت، وإنما هو للحاقهم بالمؤمنين، ومصيرهم إلى حيث صاروا.

وأما قول الموصى : إن مت فثلث مالى صدقة، فلأن الموت، وإن كان محققا، لكن لما لم يعرف تعين وقته وطال الأمد، وانفرجت(٥٣) مسافة أمنية الحياة، نزل منزلة المشكوك، كما هو الواقع الذى يدل عليه أحوال العباد، فإن عاقلا لايتيقن الموت، ويرضى بإقامته على حال لايحب الموت عليها أبدا كما قال بعض السلف: ما رأيت يقينا لاشك فيه، أشبه بشك لايقين فيه من الموت، وعلى هذا حمل بعض علماء المعانى، «ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» «المؤمنون ١٥، ١٦» فأكد الموت باللام، وأتى فيه باسم الفاعل الدال على الثبوت، وأتى فى البعث بالفعل ولم يؤكده.

وهكذا نجد أن ابن القيم يلتمس لخروج [إذا، وإن] عن معانيها التى اشتهرت فيها عللا لطيفة، وأسبابا بلاغية، يقبلها العقل، ويألفها الاستعمال، ويتذوقها الفطن اللبيب.

وما علل به الآيتين السابقتين «إن كنتم إياه تعبدون»، «إن كنتم بآياته مؤمنين» تعليل مقبول، وتوجيه لطيف، إلا أن غيره كان أوضح منه، وأكثر قبولا لدى السامع،

يقول :(٥٤) «المخاطبون بلاشك يعبدون الله – إذ هم مؤمنون – وقد خاطبهم، وناداهم بنداء الإيمان لكن الأسلوب القرآنى اختار حرف [إن] دون [إذا]، وأدخلها على الأمر المتيقن، لأن المراد تنبيه الناس، وإثارة نفوسهم، لتبلغ الكمال فى صفة العبادة على سبيل الهز للنفوس والتحريك لها حتى تبلغ الكمال فى تلك الصفات، كما يقال لمن يراد إثارته: «إن كنت رجلا فافعل كذا».

واو الثمانيـــة :

ذهب قوم من أهل اللغة(٥٥) الى وجود واو تسمى «واو الثمانية» ومن هؤلاء: ابن خالويه(٥٦)، والحريرى(٥٧) وغيرهما، وقالوا فى توضيحها:

إن من خصائص كلام العرب إلحاق الواو فى الثامن من العدد، فيقولون: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية– فإذا بلغت الثمانية لم تجرها مجرى الأخوات التى لايعطف بعضها على بعض، كما يقال فى الحروف المقطعة: ألف، با، تا، ثا، وذلك إشعار بأن السبعة عندهم عدد كامل وتام، وأن مابعده مستأنف.

وأستدلوا على ذلك بهذه الآيات القرآنية :

قوله تعالى : «التائبون، العابدون، الحامدن، السايحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر» «التوبة ١١٢».

فالواو جاءت مع الوصف الثامن فى الآية [والناهون عن المنكر] بعد استيفاء الأوصاف السبعة.

قوله تعالى : «عسى ربه إن طلقلن أن يبدله أزواجا خيرا منكن، مسلمات، مؤمنات، قانتات، تائبات، عابدات، سائحات، ثيبات، وأبكارا» «التحريم ٥».

فقد جاءت الواو مع الوصف الثامن من الآية [وأبكار] بعد استيفاء الأوصاف السبعة.

قوله تعالى : «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» «الكهف٢٢».

قالوا ودخلت فى العدد الثامن.

قوله تعالى فى أهل الجنة: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها» «الزمر ٧٣» – فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية.

وقال تعالى فى أهل النار: «وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا، حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها» «الزمر ٧١» –بدون واو لما كانت أبواب النار سبعة.

وقد ذهب المحققون إلى أن هذه الواو ليست واو الثمانية، وإنما جاءت لمعان سامية، وأغراض لطيفة، تتفق مع بلاغة القرآن، وسمو إعجازه، يقول ابن القيم :(٥٨)

«هذه الأجوبة غير سديدة، وأحسن مايقال فيها:
إن الصفات إذا ذكرت فى مقام التعداد، فتارة يتوسط بينها حرف العطف، لتغايرها فى نفسها وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها.

وتارة لايتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها، وتلازمها فى نفسها، وللإيذان بأنها فى تلازمها كالصفة الواحدة.

وتارة يتوسط العاطف بين بعضها، ويحذف مع بعض، بحسب هذين المقامين، فإن كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد، حسن إسقاط حرف العطف، وإن أريد الجمع بين الصفات، أو التنبيه على تغايرها، حسن إدخال حرف العطف.

ثم أخذ يوضح ذلك بضرب الأمثلة، ويمهد للرد على الشواهد السابقة واحدا واحدا، فقـال : .

فمثال الأول «التائبون، العابدون، الحامدون... الآية»، «مسلمات، مؤمنات، قانتات ...الآية».

ومثال الثانى : قوله تعالى : «هو الأول، والآخر والظاهر والباطن« «الحديد ٣».

وتأمل كيف اجتمع النوعان فى قوله تعالى: «حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم، غافر الذنب، وقابل التوب، شديد العقاب ذى الطْول» «غافر ١-٣».

فأتى بالواو الوصفين الأولين، وحذفها فى الوصفين الآخرين، لأن غفران الذنب، وقبول التوب، قد يظهر أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب، فكان فى عطف أحدهما على الآخر مايدل على أنهما صفتان، وفعلان متغايران، ومفهومان مختلفان، لكل فهما حكمه.

أحدهما يتعلق بالإساءة والإعراض -وهو المغفرة.

والثانى : يتعلق بالإحسان والإقبال على الله والرجوع إليه -وهو التوبة-، فتقبل هذه الحسنة، وتغفر تلك السيئة، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر.

وكلما كان التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف فى قوله تعالى: «هو الأول والآخر والظاهر والباطن»، وترك فى قوله: «الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن» «الحشر٢٣»، وقوله: «الخالق البارىء المصور» «الحشر ٢٤».

وأما «شديد العقاب، ذى الطول» فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهى الدلالة على اجتماع هذين الأمرين فى ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لاينافى شدة عقابه، بل هما مجتمعان له، بخلاف [الأول والآخر]، فإن الأولية لاتجامع الآخرية. ولهذا فسرها النبى ﷺ بقوله: أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، فأوليته أزليته، وآخريته أبديته.

والذى حسن دخول الواو فى [هو الأول والآخر، والظاهر والباطن](٥٩) أن هذه الصفات متقابلة متضادة، وقد عطف الثانى منهما على الأول للمقابلة التى بينهما، والصفتان الأخريان كالأولين فى المقابلة، ونسبة الباطن إلى الظاهر، كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأولين حسن بين الأخريين».

وبعد أن شرح هذه المقدمة أخذ يطبقها على الآيات التى استشهد بها الآخرون على

وجود واو الثمانية، ويردها شاهدا شاهدا، فقال فى الشاهد الأول موضحا السبب فى وجودها وعدمها: «فإذا عرفت هذا فالآية التى نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف وتركه، لأن كل صفة لم تعطف على ماقبلها كان فيها تنبيه على أنها فى اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة حسن العطف ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته، مطلوب تعيينه، لايكتفى فيه بحصول الوصف الآخر، بل لابد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه، ونهيه عن المنكر بصريحه.

وأيضا حسن العطف هنا ماتقدم من التضاد، فلما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ضدين، أحدهما: طلب الإيجاد، والآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين، فحسن لذلك العطف».

وقال فى الشاهد الثانى ملتمسا العلة فى ذكر الواو وحذفها:

«الموضع الثانى قوله تعالى: « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله ازواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات، قانتات، تائبات، عابدات، سايحات، ثيبات، وأبكارا».

فقيل : هذه واو الثمانية لمجيئها بعد الوصف السابع.

وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين، لأن الأوصاف التى قبلها المراد اجتماعها فى النساء، وأما وصفا البكارة والثيوبة، فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف، لأن المقصود أن يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

وقال في الآية الثالثة :

«الموضع الثالث، قوله تعالى :«سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم».

قيل : المراد أدخال الواو هنا لأجل الثمانية.

وهذا يحتمل أمرين، أحدهما هذا. والثانى أن يكون دخول الواو ههنا إيذانا بتمام

كلامهم عند قولهم (سبعة)، ثم ابتدأ قوله: [وثامنهم كلبهم] وذلك يتضمن تقرير قولهم [سبعة]، كما إذا قال لك: زيد فقيه، فقلت: ونحوى.

وهذا اختيار السهيلى،(٦٠) وهذا إنما يتم إذا كان قوله: [وثامنهم كلبهم] ليس داخلا فى المحكى بالقول –والظاهر خلافه– والله أعلم.

وقال فى الآية الرابعة والأخيرة:
«الموضع الرابع قوله تعالى: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا، حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها».

فقد قالوا: أتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية، وقال فى النار: «حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها» لما كانت سبعة.

وهذا غاية فى البعد، ولادلالة فى اللفظ على الثمانية، حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من حذف الجواب(٦١) لنكتة بديعة، وهى أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت فى وجوههم لأنه أبلغ فى مفاجأة المكروه –وأما الجنة، فلما كانت ذات الكرامة، وهى مأدبة الله، وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم اليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة هنا الدالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تضخيما لشأنه، وتعظيما لقدره».

وهكذا نرى ابن القيم فى حسه البلاغى، وفقهه للنص القرآنى بلغ الذروة، وبلغ الغاية، فقد علل لوجود الواو فى تلك الآيات السابقة تعليلات طريفة، يقبلها العقل، ويتذوقها الحس ويحس بحلاوتها ذوو الأذواق الصافية، والبلاغة العالية.

وعلى مايظهر فإن هذه الواو قد شغلت كثيرا من ذؤابة العلماء، وفقهاء اللغة، وأدلوا بدلوهم فيها، ورأوا رأيهم فى وجودها وعدمها من زمن بعيد، فجاء ابن القيم، وجمع من كل هؤلاء أطايب أثمارهم، وخلاصة آثارهم.

فقد اجتمع أبو على الفارسى مع أبى عبد الله الحسين بن خالويه فى مجلس سيف

الدولة، فسئل ابن خالويه عن قوله تعالى: «حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها» فى النار بغير واو، وفى الجنة بالواو.

فقال ابن خالويه: هذه الواو تسمى واو الثمانية، لأن العرب لاتعطف الثمانية الا بالواو فنظر سيف الدولة إلى أبى على وقال: أحق هذا؟.

فقال أبو على: لا أقول كما قال إنما تركت الواو فى النار، لأنها مغلقة، وكان مجيئهم شرطا فى فتحها، فقوله [فتحت] فيه معنى الشرط، وأما قوله [وفتحت] فى الجنة، فهذه واو الحال، كأنه قال: جاءوها وهى مفتحة الأبواب، أو هذه حالها.

ويعلق صاحب البرهان على هذا بقوله:(٦١)

أحدهما: أن العادة مطردة شاهدة فى إهانة المعذبين بالسجون، من إغلاقها حتى يردوا عليها، وإكرام المنعمين بإعداد فتح الأبواب لهم مبادرة واهتماما.

الثانى: التطير فى قوله تعالى: «جنات عدن مفتحة لهم الأبواب» «ص ٥٠».

وهذا التعليل هو الذى تقبله الأفهام، وتطمئن إليه النفوس، ويرشد إليه سياق القرآن الكريم، فقد ورد فى القرآن تسعة أوصاف متتابعة لم يدخل بينها حرف العطف، حتى ولابعد الوصف السابع، وهو قوله تعالى: «ولاتطع كل حلاف مهين هماز مشاءٍ بنميم مناع للخيْر معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم» «ن ١٠-١٣»، وهذا مما يدل على ضعف القول بما يسمى «واو الثمانية».

المراجـــــع

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ط الحلبى، القاهرة سنة ١٩٧٢م.

٣- ابن قيم الجوزية - حياته وآثاره، بكر بن عبد الله أبو زيد، ط وزارة الأعلام، السعودية، سنة ١٤٠٠هـ.

٤- ابن قيم الجوزية - جهوده فى الدرس اللغوى، د. طاهر سليمان حمودة، ط دار الجامعات المصرية، اسكندرية، سنة ١٣٩٦هـ.

٥- البرهان فى علوم القرآن، للزركشى، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، سنة ١٣٧٧هـ.

٦- بدائع الفوائد، لابن القيم، بيروت، بدون تاريخ.

٧- بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز، للفيروز ابادى، تحقيق محمد على النجار، ط المجلس الأعلى للشئون الأسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ.

٨- التبيان فى أقسام القرآن، لابن القيم، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، سنة ١٣٨٨هـ.

٩- التفسير القيم، لابن القيم، جمع محمد أويس الندوى، القاهرة، سنة ١٣٦٨هـ، ط جماعة أنصار السنة المحمدية.

١٠- تاريخ آداب اللغة العربية، جورجى زيدان، القاهرة، سنة ١٣٣٢هـ.

١١- الجنى الدانى فى حروف المعانى، للمرادى، تحقيق فخر الدين قباوة، حلب، سنة ١٣٩٣هـ.

١٢- الخصائص، لابن جنى، تحقيق محمد على النجار، بيروت، بدون تاريخ.

١٣- الخطط التوفيقية، زكى مبارك، القاهرة.

١٤- دائرة المعارف الاسلامية، نقلها الى العربية عبد الحميد يونس وآخرين، القاهرة، سنة ١٩٣٣م.

١٥- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، القاهرة، سنة ١٩٧٢م.

١٦- درة التنزيل وغرة التأويل، للإسكافى، بيروت، سنة ١٣٩٣هـ.

١٧- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة، لابن حجر، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.

١٨- روح المعانى، للألوسى، بيروت، بدون تاريخ.

١٩- زاد المعاد، لابن القيم، القاهرة، دار الفكر، سنة ١٣٩٢هـ.

٢٠- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، للعماد الحنبلى، بيروت، بدون تاريخ.

٢١- الكشاف، للزمخشرى، القاهرة، ط الحلبى، سنة ١٩٧٢م.

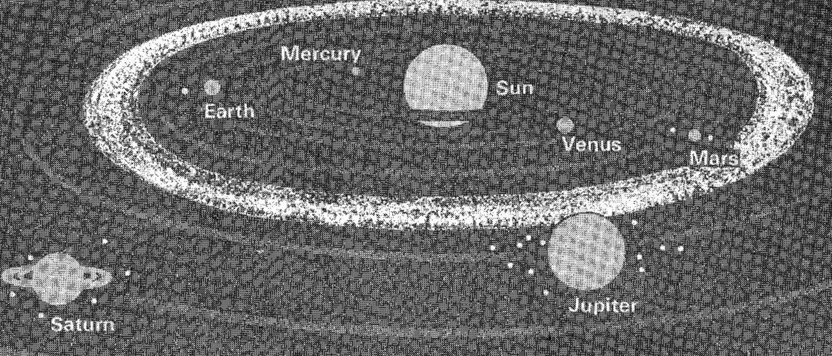
٢٢- الكتـــاب، لسيبويه، القاهرة، المطابع الأميرية.

٢٣- المقتضب، للمبرد، تحقيق الشيخ محمد عضيمة، ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٢٤- معانى الحروف، للرمانى، تحقيق د. عبد الفتاح شلبى، القاهرة، سنة ١٩٧٣م.

٢٥- مختار الصحاح، للرازى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٧٦م.

٢٦- وفيات الأعيان، لابن خلكان، القاهرة.


Uranus
Asteroids (various)
Mercury
Sun
Earth
Venus
Mars
Jupiter
Saturn
Neptune
Pluto
general direction of motion
not to exact scale